بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: ١٠٣ **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة الإنسان**

التاريخ: ٢٠/ ٢٠٢٤/١١م **كتبه: عبدالله ضيف الستري**

بقي لنا من هذه السورة ثلاث آيات، والملفت للنظر ولم أر بمقدار تتبعي من نبه على هذا الشيء، أن هذه الآيات الثلاثة بأجمعها يوجد فيها تعليق على المشيئة، قوله تعالى ﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ فختم هذه السورة كان بتعليق أحكام على المشيئة، لكن في بعضها على مشيئة العبد، وفي بعضها الآخر على مشيئة الله تبارك وتعالى، وهذا ما سوف نقف عنده إن شاء الله.

الآية التاسعة والعشرين: ﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾.

يوجد فيها مبحثان مهمان:

المبحث الأول: البحث السياقي. فما هو ربط هذه الآية بالآيات السابقة؟

في المورد الذي يستعمل المتكلم أداة إشارة إلى شيء تقدم لا محالة يكون الحديث عن سياق واحد، فما زالت هذه الآية تدور في سياق المقطع السابق؛ لأنه قال: ﴿إِنَّ هذِهِ﴾ مشار إليه والمشار إليه فيما تقدم من الآيات.

لكن في تعيين المشار إليه يوجد بحث:

الوجه الأول: لعل هو متبنى الأكثر، وهو أن المشار إليه هي السورة، أي سورة الإنسان، وهذه السورة التي تقدم إلى الآن معظمها ﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ هذه السورة فيها تذكرة للإنسان.

الوجه الثاني: المشار إليه هو المقطع الأخير لا كل السورة، والمقطع الأخير يبدأ من قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ أي هذه الآية المتقدمة في هذا المقطع فيها تذكرة.

الوجه الثالث: أن يكون المشار إليه هي الآية الأخيرة والتي هي قبل هذه الآية: ﴿نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَإِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ فهذه تذكرة، الله سبحانه وتعالى بيّن خالقيته لهؤلاء وإحكام أمرهم في الخلق وبيّن قدرته على تبديل هؤلاء، فهذا فيه تذكرة. فيكون مرجع اسم الإشارة والمشار إليه باسم الإشارة هذه الآية الأخيرة.

يفهم هذه الوجوه من كلمات علماء التفسير من دونه أن يؤتى بأي دليل على واحد من هذه الوجوه الثلاثة.

يوجد لهذه الآية التي نتكلم عنها آيات مشابهة، في سورة المزمل الآية التاسعة عشر قوله: ﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾[1] وهي عين الآية المبحوثة. وفي سورة النبأ الآية التاسعة والثلاثين قوله: {ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً﴾[2].

المتأمل في مضمون سورة الإنسان، فسورة الإنسان في مطلعها بيّن لنا خلقة الإنسان، وأن الله سبحانه وتعالى خلقه من نطفة أمشاج، وبيّن لنا الغاية والهدف من هذا الخلق حيث قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَليهِ﴾ فهذه الغاية من الخلق، ثم بين الباري تبارك وتعالى أن هذا الإنسان الذي خلقه للامتحان والابتلاء أعطاه وسائل المعرفة، ﴿فَجَعَلْناهُ سَميعاً بَصيراً﴾ وكذا قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ ثم كل السورة بدأت تبيّن الشاكر والكفور، الشاكر هم الأبرار الذين ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطيراً () وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكيناً وَيَتيماً وَأَسيراً﴾ ثم بدأ بالكفور وبيّن شيئاً من صفاته وأحكامه إلى أن وصلنا إلى ما نحن عليه.

عندما وصلنا إلى ما نحن عليه لم يكتف بجعل ما تقدم تذكرة، بل قال: ﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ بعد أن بيّنت مطلع السورة أن هذا الإنسان الله سبحانه وتعالى هداه الطريق وبيّن له الحق من الباطل، وأن هناك جمعاً من الناس يختارون الحق وجمعاً آخر يختارون الباطل، وتكلم عن كلا الجمعين، فصار أمام هذا الإنسان مشهد يستدعي التذكر، والمشهد هو كنت عدماً ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُورا﴾، فخلقناك وأعطيناك وسائل المعرفة، وجعلناك مختاراً، جماعة من أبناء جنسك اختاروا هذا الطريق فـ ﴿لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورا﴾ وجماعة اختاروا الطريق الآخر فعذبهم وعاقبهم.

---

[1] المزمل: ١٩
[2] النبأ: ٣٩

هذا المشهد الذي بين يديك إذا تأملت به هو مدعاة للتذكر، الآن أيها الإنسان إذا تذكرت ﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾.

إذاً بهذا البيان نؤيد الوجه الأول، لكن لا بمعنى أن الضمير يرجع إلى السورة بالحمل الأولي، بل يرجع إلى ما أفادته هذه السورة. هذا المشهد الذي قدمته هذه السورة هو مشهد يدعو إلى التفكر.

البحث الثاني: المقصود من السبيل ﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾.

لا إشكال أن السبيل في اللغة من المفردات الواضحة، فالسبيل هو الطريق. بعد تذكرك أيها الإنسان ينبغي أن تكون مشيئتك وإرادتك مطابقة للتذكر الذي حصل عندك، هذا التذكر الذي حصل عندك يدعوك إلى أن تتخذ طريقاً إلى الحق، طريقاً إلى الله سبحانه وتعالى.

فهذه الكلمة لا تحتاج إلى تفسير، وتفسير السبيل في جملة من الروايات كما في شواهد التنزيل للحسكاني قال: (أَنَا وَأَهْلُ بَيْتِي شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ، أَغْصَانُهَا فِي الدُّنْيَا، فَمَنْ تَمَسَّكَ بِنَا اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا)[3]. لا شك ولا ريب أن التمسك بالنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام هو أقوى سبيل وأقرب سبيل إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا لا ينازع فيه.

لكن هذه الرواية ليست رواية تفسيرية كي نحصر السبيل بما جاء في الرواية، وإنما هذا من باب ذكر المصداق الأهم، فالسبيل هو الطريق إلى الله، لكن هذا الطريق إلى الله مصداقه الأهم، بل الذي لا يحصل إلا به إنما يكون يحصل عن طريق هؤلاء لأنهم هم الباب إلى الله تبارك وتعالى.

فهذه الروايات وإن دلت على حصر المصداق لكن هي ليست تفسيرية، أي لا يتوهم أحد أن السبيل في القرآن الكريم معناه أهل البيت عليهم السلام، فالسبيل في القرآن الكريم مستعمل في معناه العرفي واللغوي، لكن جاءت الروايات وبيّنت لنا هذا الطريق وهذا السبيل ينحصر بطريق أهل البيت عليهم السلام، هم سفينة النجاة من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق.

[3] شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، ج١، ص: ٣٧٩

وهذه قاعدة عامة في تفسير القرآن الكريم، وهذه القاعدة أشار إليها العلماء، وعلى ما أذكر في بحث المكاسب المحرمة للسيد الإمام رحمه الله، يعبر هذا التعبير يقول: "يكاد لا توجد عندنا روايات تفسيرية". وإنما هذه الروايات لبيان المصاديق.

الفيض الكاشاني في مقدمة تفسير الصافي يشير إلى هذه الحقيقة، وبهذه الحقيقة يرى أنه ترتفع التعارضات بين الأخبار. مثلاً في خبر الذين يؤمنون بالغيب، فيوجد خبر يفسر الغيب بالله ويوجد خبر يفسر الغيب بالنبي صلى الله عليه وآله ويوجد خبر يفسر الغيب بالجنة ويوجد خبر يفسر الغيب بمولانا صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، إذا كانت هذه الروايات تفسيرية يقع بينها التعارض، وإنما هي روايات لبيان مصداق للغيب الذي معناه واضح، وهو أن الغيب هو ما احتجب عن حواسك وسمعك وعقلك وبصرك. فهي ليست بصدد تفسير مفردة الغيب، وإنما الإمام عليه السلام بحسب المخاطب وما يليق بالمخاطب وبحسب الظرف والحاجة يبيّن أحياناً هذا مصداق وأحيانا ذاك المصداق.

فإذاً كلمة السبيل واضحة، وهي عبارة عن الطريق، ومصاديقها التي ذكرت في كتب السنة أن السبيل هو الطاعة فهو مصداق وليس تفسيراً. لكن باعتقادنا بحسب روايات أهل البيت عليهم السلام أن الطاعة لا تكون إلا عن طريق مخصوص، لا بمعنى أن هذا الطريق المخصوص صار هو المسفر للكلمة، فالكلمة معناها واضح.